اللغة العربية ومواكبة المدّ الثقافي في عصر العولمة

أ.د.شعيب مقنونيف

تمهيد

ما من شك في أن أي نظام حضاري يعتمد في أفوله أو بقائه على مدى اهتمامه بمقوماته الأساسية، والتي كانت سببا في بزوغه، هذه المقومات التي تعد أرضية صلبة لإقامة أي مشروع نهضوي، وما من شك في أن هذه المقومات تنبني أساسا على المُعتقد والتاريخ...؛ وأداة الإفصاح عن هذا النهوض هي اللغة التي ينبغي أن تكون وسيلة ومُبتغى في ذات الوقت، وغير بعيد عن ذلك نجد اللغة العربية لغة القرآن الكريم وسنة المصطفى صلوات الله وسلامه عليه، وهي لغة العلوم خلال حقب زمنية طويلة، لكن اليوم أضحى الهدف وشغلنا الشاغل كيفية الحفاظ على هذه اللغة التي هي لغة أهل الجنة، والتي بُجلت لتكون لغة للرسالة الخاتمة والخالدة، كل هذا التحول الذي جعل اللغة تبحث عمن يحميها بعدما كانت هي من يحمينا ويحمي سائر العلوم والمعارف ويحمي مقومات هذه الأمة وتاريخها وهويتها.

هذا ما يجعلنا أمام ضرورة ملحة لتحقيق الأمن الفكري الذي لا يمكن أن يتحقق بدون اللغة، هذه اللغة التي أهانها أهلوها فأُهينوا، ولا يمكن بذلك الحديث مطلقا في ذلك لا عن التراث ولا عن الهوية ولا عن المُعتقد ولا أي شيء من ذلك دون الأخذ باللغة العربية.

وإذا كان هذا الأمر مُلحا فيما مضى فهو أشد إلحاحا اليوم أمام الانفتاح على العالم الخارجي خاصة أمام التحديات التي تفرضها العولمة اليوم، أمام المد المعلوماتي الأجنبي، وأمام الأساليب التقنية المعاصرة للاتصال التي ينبغي القول إزائها أننا لسنا في مستوى مواجهتها ومجابهتها بسبب الوهن الذي أصابنا وبالتالي حتما سنكون في حكم المتأثر لا المؤثر.

وإذا ما اطلعنا اليوم على الإنتاج العلمي الحقيقي بأي لغة أجنبية أخرى نجد أنفسنا أمام واقع مخجل لما نُسهم فيه بلغتنا وأمام زهد مبالغ فيه لا كما ولا نوعا، فإذا كانت اللغة العربية لغة القرآن الكريم حيث أكرمها الحق تبارك وتعالى، نجدها أضحت بسببنا حبيسة الرفوف والأدراج حيت أهناها فأُهنا، لأننا لسنا في مستوىً للحفاظ على هويتنا ولا أمننا الفكري الضائع، حيت يجعلنا هذا أمام جزم بأن اللغة العربية لم تعاني من شيء كمعاناتها منا، نحن الذين ندعي أننا من النُخب العلمية.

أولا- الهوية الحضارية للغة العربية والعولمة

إن اللغات هويات الأمم، وعندما تموت هذه الأمم تموت اللغات. والعربية هذه اللغة المتناهية الجمال، التي كادت تبلغ حدّ الكمال؛ والتي لايبرح خصومها، لحاجة في نفوسهم، ينّهمونها بالقصور والتخلّف تحتاج من أهلها، من الماء إلى الماء، إلى شيء من العناية والانضباط لكي تزداد بهاءً وجمالا، ولكي تسع كلّ المعاني الجديدة، والمفاهيم الحديثة، فتشمخ جنباً لجنب مع أيّ لغة عالمية كانت. لأنها، أي العربية، لغة نموذج، متميز بين اللغات القديمة ذات الرسالات الدينية والحضارية، وهي لغة نموذج متميزة أيضاً بين اللغات الحديثة التي تعيش على أمل الانتشار الواسع في المستقبل، وهي لغة الوحدة والانتماء الواضح الذي تنشده كل أمة تعتز بلغتها وذاتها وتمد حاضرها على مساحة الأرض التي تعيش عليها شعوبها وسكانها. لذلك كانت اللغة العربية ملاذاً لكلّ المفكرين العرب، وما تزال، وبها أثبتوا إبداعاتهم وابتكاراتهم، وبها نشروا الفكر الإسلامي والثقافي ، والتي ما زالت آثارها في العلوم الحديثة. يرى الدكتور أسعد علي أنّ اللغة << منزل الكائن البشري، ومرآة فكره، يلجأ إليها لتأكيد وجوده، وينطلق بها لتحقيق رغباته، ولكنّ المنازل تغنى بسكانها، والمرايا تصفو وتجمل بالعيون الناظرة إليها، والوجوه المصورة عليها، فإذا

هاجر السكان، أو ماتوا، خلت المنازل، وافتقر غناها، فهم روحها التي بها تحيا»١.

والوطن العربي، إن على مستوى الأفراد أو الحكومات، وفي هذا الزمن المتسارع الخطى لم يألُ جهداً في الاهتمام بهذه اللغة وتطويرها ورعايتها، حيث أوجد لها دورها وأثبت قدرتها على التفاعل مع العصر وكل دواعي التكنولوجيا. فهي متفوقة في خصائصها وستبقى كذلك بجهود أبنائها. و ورقتي هذه محاولة لتظهير حيوية وقوة اللغة العربية فيما تمتله من خصائص التفوق على العديد من اللغات، ومن ثم حتمية البشرية في عدم الاستغناء عنها لأنها ذات أثر حضاري ومعرفي كبير. وحاولت الحديث عن مواكبة اللغة العربية للمدّ الثقافي العولمي من محورين اثنين؛ هما

- الهوية الحضارية للغة العربية والعولمة.
- من استراتيجيات اللغة العربية تجاه مستجدات العصر.

ممّا لا يختلف فيه اثنان هو، أن أهمية اللغة في حياة المجتمعات قديمها و حاضرها، جعل اللغة ترتبط بالوجود في مختلف صوره، وهذا ما دفع العلماء إلى التخصص في ميدانها والبحث عن علاقتها بالعلوم الأخرى فظهر علم النفس اللغوي، وعلم الاجتماع اللغوي وعلم الاقتصاد اللغوي ذلك لسدّ الثغرات التي قد تحدث عند صنع العملية التواصلية حيث تقترن بالبلاغة التي تفيد أن المتكلم لا يقتصر في كلامه على مجرد الإفهام الجيّد٢، بل يزيد على ذلك بأن يضفي على كلامه من مقومات البيان ما يجعل كلامه يؤدّي أغراضا زائدة على الغرض الأساس المتمثل في التوصيل٣. فما دامت اللغة بهذه الأهمية كانت مناط تحول لدى المختصين وتحولت بتحولها المسارات الحضارية، تحرك آلياتها في كلّ قارات العالم بل أصبحت التراستات تسير جنبا إلى جنب مع مصطلحات اللغة بل وأصبحت ثمة مشاريع لغوية لا تقل من حيث الأهمية ومن حيث الرساميل عن المشاريع الاقتصادية، وكل ذلك لأنّ اللغة رسول الهوية التي يحاول أصحابها توسيع دائرتها إما بتذويب باقي الهويات الأخرى أو امتصاصها. فبقاء الهوية مرهون بقوة الاقتصاد وحكمة السياسة وإصرار أفراد المجتمع على السيادة، ذلك أنّ الهوية ذلك الإحساس الداخلي المطمئن للإنسان على أنّه هو نفسه في الزمان والمكان وعلى أنّه منسجم مع نفسه باستمرار مهما تعددت واختلفت المكانات الاجتماعية وعلى أنّه معترف به بما هو عليه من طرف الآخرين الذين يمثلون المحيط المادي والاجتماعي والثقافي المحلي والإقليمي والدولي٤.

هذا الأساس المتين وهذه الشجرة المتجذرة بجذورها المتفرعة بفروعها الباسقة كانت دوما الحافز الذي يجعل طموح الإنسان وفي أي زمان ومكان أن تكون هويته الأكثر انتشارا وسيطرة فيبيح لنفسه بلعمة الأخر، ومحاولة تغطيته ويتحول إلى مركز الكون فهو البداية وهو النهاية وهو الاتجاهات المتباينة، وهو أوجه الحضارة المختلفة. فلعلها التوجهات التي تسطر مسار حضارة من الحضارات، فنسمي كلّ ذلك بمسميات مختلفة، هي العولمة، هي الكوننة أو الشمولية أو في عصرنا الحالي الأمركة. وهذا الفهم الحضاري لم تخل منه حضارة من الحضارات ولا أيديولوجية من الإيديولوجيات، فانتشار فكرة من الأفكار أو ظاهرة من الظواهر هو بمثابة رغبة هذه الجهة في الاستمرار فعند المسلمين تتقرر النهاية بقيام الخلافة وثقافتها قبل أن يرث الله الأرض ومن عليها وعند الشيوعيين فالعودة إلى المشاعية المتمخضة عن الاشتراكية الانتقالية. إذن فالعولمة مصطلح قديم يلبس ثوبه على اختلاف الأزمنة والأمكنة فهي لم تنشأ فجأة، بل لها جذورها التاريخية ولها مقدماتها الموضوعية وخاصة تلك الأخيرة التي ظهرت مع بداية الربع الأخير من القرن العشرين وارتبطت بالثورة الصناعية الثالثة التي أبرز مظاهرها تكنولوجيا الاتصال والمعلومات التي حوّلت العالم إلى قرية صغيرة٥.

أعود وأذكر من جديد بتلك الصلة الوثيقة، والتي لمحها قداماؤنا، بين اللغة والحضارة، فاهتّموا بها لتكون وعاءً للحضارة التي عاشوا في ظلها، ولتكون أيضاً خير وسيلة تعبر عن ملامح هويتهم الحضارية، اَ وَ لم يكن شعر << ما قبل الإسلام معبراً عن حياة العرب وقيمهم وحضارتهم المعنوية والمادية، وما وصل منه دليل على أن العربية استوعبت مطالب الحياة قبل الإسلام و لا يُخفي الحقيقة ما ذهب إليه بعض الباحثين٦ من أن ذلك الشعر

منتحل، لأنه لا يعبر عن الحياة العربية >>٧، وليس صحيحا أن الشعر الجاهلي، كما يرى الدكتور أحمد مطلوب٨، الذي وصل لا يمثل الحياة العربية أو حضارة العرب قبل الإسلام، فهو قد تحدث عما أشار إليه الدكتولر طه من مظاهر الحضارة التي عُرفت في ذلك الزمان، وفيه تجلت الحياة العربية في كثير من المظاهر٩ . لنستمع إلى ابن سلام الجمحي، موضحا أهمية الشعر عند العرب بوصفه وثيقة تشهد على ما كان لهم من حضارة وتقدّم في الحياة: << كان الشعر عند العرب ديوان علمهم ومنتهى حكمهم، به يأخذون وإليه يصيرون>>١٠، ونقل عن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، قوله:<< كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه>>١١، و قريب من هذا ما قاله أحمد بن فارس: << والشعر ديوان العرب، وبه حُفظت الأنساب وعُرفت المآثر، ومنه تعلمت اللغة وهو حجة فيما أشكل من غريب كتاب الله >>١٢.

ومع ظهور الإسلام حدثت تحولات ذات شأن عظيم في حياة العرب، وأحدث نزول القرآن، الكريم، على خاتم الأنبياء، صلى الله عليه وسلّم، نقلة نوعية في نفوسهم وقيمهم، وكان من تلك التحولات مسايرة اللغة العربية للواقع الجديد والمعيش، ولما ظهر من أمور لم تكن معهودة أو لم تعبر عنها اللغة. وقد تحدث الجاحظ عن التحول اللغوي الذي طرأ على الألفاظ بظهور الإسلام، وأشار إلى هجر الناس لألفاظ كثيرة وابتداع ألفاظ لم تكن، وذلك بغية التعبير عن القفزة العظمى للعرب١٣. لقد نقل الإسلام العرب نقلة حضارية كبرى ونمت في ظله اللغة العربية، وأخذت تزدهر لتستوعب الحياة الجديدة ولم تعد لغة الشعر والنثر والخطابة فحسب، وإنما أصبحت وعاءً للعلوم، لذلك جاز لنا القول بأن أهم ما يميز لغتنا بين اللغات العالمية الحيّة، أنها قديمة حديثة في آن واحد. عاصرت اليونانية واللاتينية والفارسية والسنسكريتية، واستطاعت بما تملكه من مرونة وخصائص متنوعة كالترادف والاشتقاق والقياس أن تستمر إلى اليوم. هذا فضلا عن أنها أفادت من لغات الحضارات العربية القديمة التي قامت قبل الإسلام، وهضمت الكثير من معطياتها. كما تتوافر في اللغة العربية خصيصة لا نجدها في اللغات الأخرى، وهي الديمومة والقوّة والقدرة على الانتشار، لأنها لغة الدّين الإسلامي، لغة القرآن الكريم، ولغة النبي الكريم محمد، كما سبقت الإشارة إلى ذلك من قبل، فكانت هذه المنزلة الدينية ذات الأبعاد الإنسانية والعالمية من أسباب ترسيخ أركانها وتقدير مكانتها، فأضحت لغة عالمية، إذ استوعبت تجارب أمم وشعوب تميّزت بتعدد مصادرها الثقافية والفكرية. فعبّر عن كل ذلك الفيض الفكري بكفاءة نادرة، فكانت لغة مهمة للمعرفة الإنسانية١٤.

وغير خاف أن اللغات هويات الأمم، وعندما تموت هذه الأمم تموت اللغات. والتاريخ يحدثنا عن لغات انقرضت لأن أهلها قد انقرضوا، لكنها بقيت فيما تركوه من مدونات كما هو الحال في اللغة السومرية والفرعونية وغيرها من اللغات الأخرى. أما اللغة العربية فإنها لا يمكنها أن تموت أو تنقرض.

ثانيا- من استراتيجيات اللغة العربية

١ / في الثورة اللغوية

نجد أنفسنا اليوم في ثورة لغوية حيث تأثرت حياة الأفراد باتساع دائرة الاتصالات وما نحن إلا في بداية تحول في وظائف اللغة بالنسبة للإنسانية.

وقد تم في تطور تحكم الإنسان في اللغة و أدواتها بأربع مراحل هي نمو اللغة نفسها، وبدئ الكتابة، اختراع الطباعة، ثم بالوقت الحاضر تم توصيل الكلام والكتابة في التو واللحظة.

وقد تحولت المجتمعات التي لم يكن يقرأ ويكتب فيها إلا القليل إلى المجتمعات لا يعجز فيها عن ذلك إلا القليل والأمن في مجتمع كمجتمعنا هذا صائر بسرعة إلى أن يصبح شذوذاً اجتماعيا مثله مثل الرجل الذي لا يستطيع العمل أو القتال في المجتمعات البدائية، ويرى المختصون أن السلوك الصادر عن الأطفال المنحرفين والمعادي للمجتمع إنما هو تعبير عن التوتر العاطفي الناجم عن تأخرهم اللغوي في المدرسة١٥.

وإذا كان الناس يشتكون من فساد البيئة المهدد للكرة الأرضية فإن هؤلاء ذاتهم لهم آثار سلبية على اللغة التي هي أداة تواصلية حيث كان من الواجب عليه أن يتولى حمايتها وصونها لكنه

أبى ذلك وأدخل عليها ما ليس منها وأزاح عنها حلتها التي كانت عليها .

واللغة العربية وهي لغة عالمية أسهمت في بناء الحضارة الإنسانية للعرب وللغرب على حد سواء، وبالتالي ألم يحن الوقت لنُعيد لهذه اللغة مجدها التليد وأن نرفع من قيمتها التي كانت، ويجب الرفع من مستوى الخطاب بعد وصف المدفعين عن القضية اللغوية بأنهم دعاة تخلف وانغلاق .

وبالنظر في أعمال السلف نجدهم قد سادوا الأمم بهذه اللغة،وما عجزوا عن تبليغ ومقصود ثم إن اللغة العربية أمست مسألة في غاية الأهمية خاصة بعدما طمست حقيقتها من طرف من جعلوها قاربا وسط أمواج عاتي وجعلوا لها ولهم أعداء بالمجان، مما جعل الإنسان العربي في أزمة من أشد الأزمات التي تتعلق بأقدس ما في الإنسان وهو الفكر١٦.

ثم إن الحديث عن الأمن الفكري واللغة يجعلنا نتحدث عن الغزو الثقافي الوافد إلينا من الغرب وبلغة الغرب وبفكر العرب مما جعل هنالك هيمنة ثقافية فكرية ما جعل النخبة لا تفتي مجتمعاتها إلا بلغة الآخر – لغة أجنبية –ولا ضير في تعلم أو الاستفادة من الغرب أو لغاتهم « ومن تعلم لغة قوم أمن شرهم».

٢ / اللغة أهم مقومات الهوية :

إن الهوية ببساطة هي ماهيتك، فإذا سألت شخصا ما «من أنت» ستنتظر أن يقول لك من هو إلا إذا كان هذا الشخص يعاني من الأنوميا Anomia ، مرض يصيب الذاكرة ويؤدي لفقدان الشخص لذاته، وحينما نزور بعض الدول نطالب مرارا بإعطاء الهوية، البطاقة التعريفية١٧، ولكن إذا كان السؤال ممن يعرف المسؤول فإن التساؤل يفيد البحث عن شيء مكنون لا يتوقف عند حد الاسم والكنية، وبذلك فإن هنالك مظهران أساسيان للهوية، أولهما يتمثل في الاسم و اللقب، وثانيهما يتعلق بأمر غير ملموس، ومركب من العديد من العناصر التاريخية والدينية والحضارية.

أما عن اللغة فهي ذات ارتباط وثيق بالهوية، وفي هذا نجد التمايز بين اللغة العربية وغيرها من اللغات، فإذا قلنا اللغة الإسبانية فهي تحيل إلى بلد معين، و الأمر نفسه مع اللغات الإيطالية و الفرنسية والانجليزية وغيرها، أما اللغة العربية فهي تتعدى حدود الدول وترجعنا إلى بعد إيديولوجي يوحي إلى العديد من الدلالات والمقومات الفكرية. يقول سقراط في محاورة كراتيلوس لأفلاطون، << إن غاية الكلمات تمييز الأشياء بعضها عن بعض، وتلقين بعضنا بعضا هذه الأشياء، فتمييز الأشياء يُقصد به التمثل، أما تلقين أحدنا الآخر هذه الأشياء فهو التواصل>>١٨.

وقد تم تعريف الهوية في معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية بأنها << عملية تمييز الفرد لنفسه عن غيره >>١٩، ويذكر المفكر محمد عمارة في كتابه «مخاطر العولمة على الهوية الثقافية» أن هوية الشيء << هي ثوابته التي تتجدد وتفصح عن ذاتها دون أن تخلي مكانها لنقيضها طالما بقيت الذات على قيد الحياة >>٢٠.

وتبرز الهوية الثقافية كأداة للتمييز بين مدلول نحن ومدلول هم ومبنى ذلك التباين الثقافي رغم وجود مرونة في مدلول هذه الهوية بغض النظر على أن الهوية تشهد تنوعات وتداولات متكررة وبذلك نجد أن الهوية << الحصيلة المشتركة من العقيدة الدينية واللغة والتراكم المعرفي وانتاجات العلم والفنون والآداب والتراث والقيم والتقاليد والعادات والأخلاق والتاريخ والوجدان ومعايير العقل والسلوك وغيرها من المقومات التي تتمايز في ظلها الأمم و المجتمعات >>٢١.

ونجد أن العولمة هي اللا هوية تهدف إلى التغيير من الثوابت والمحتوى والإرث التاريخي والاستدراج إلى ثقافة غربية غريبة وبشعارات زائفة تحت غطاء العولمة، أي وكأن بهم يقولون لنكن عالما واحدا بثقافة واحدة وقوانين واحدة ولكن كل هذا لأجل الوقوع تحت الأسر وظهر ما كان مستترا فيصبح التغريب محلا عن العولمة.

مما تمّ تأكيده في العديد من الدراسات والأبحاث فإن الثورة التقنية لها تأثير على الهوية الثقافية وتؤدي إلى حدوث تغيرات في بناء المجتمع ووظائفه وشرائحه المختلفة وبخاصة شريحة الشباب، هذا ما يؤدي إلى حصول تغيرات وأبعاد جديدة في الهويات الثقافية العربية.

ومع ضرورة الاهتمام بالمراحل

الإعدادية حيث أن العديد من الأزمات التي تظهر في فترات لاحقة وفي فترات التعليم العالي مبناها برامج وأفكار تعليمية خاطئة خلال المراحل الأولى، ومن ذلك كان لزاما إعداد برامج ومقررات تعزز الهوية الوطنية العربية والإسلامية لدى شبابنا٢٢.

ومن أبرز أسباب حصول العديد من الأزمات المعرفية المهددة للأمن الفكري:

- الفكر الوافد من خلال تقنيات الاتصال الحديثة٢٣.
- ضعف الوازع الديني٢٤
- القصور الإعلامي أو الدور السلبي الذي يقوم به٢٥

٣/ تلاقح العربية مع اللغات العالمية

إذا كانت اللغة العربية أداة للتخاطب، ومصهراً لصقل التعابير عن أدقّ الإحساسات، وأرق العواطف في العصر الجاهلي، فإنها أصبحت لغة العلم والفن في العصور التالية، كما ذكرنا ـ ويكفي أن نستقرئ موسوعات اللغة لنلمس ثراء عزّ نظيره في معظم لغات العالم. ولعل من مظاهر هذا الثراء تدرج الأسماء لنفس المسميّات في مئات التعابير من القوة إلى الضعف، من خلال شتى الاعتبارات، تبعاً لأدق مجالات الاستعمال. ففي مصنّفات العلوم الرياضية والأدبية والفلسفية والقانونية وغيرها، كانت اللغة العربية هي القوام والأساس للتفاهم بين العلماء، وصياغة أعمق النظريات التقنية، يوم كانت الحضارة العربية الإسلامية في عنفوان ازدهارها، ويكفي أن نتصفح كتاباً علمياً أو فلسفياً لندرك مدى هذه القوة، وطبيعة هذه السعة الخارقة. ففي العربية مقدرات لا يتوقف حسن استغلالها إلا على مدى ضلاعتنا في فقه اللغة٢٦.

صحيح أن العربية كانت لغة أدب وفن ومخاطبة منذ أعرق العصور والجاهلية، لكنها استوعبت الثمار المادية والروحية التي جنتها من الإسلام حتى غدت اللغة الرسمية في أصقاع الدولة العربية الإسلامية، وتعزّز هذا الدور، وتجذر في حياتنا المعاصرة بفعل الاهتمام الذي تبديه الجامعة باللغة وكذلك المجامع العلمية٢٧.

يتّضح لنا من خلال الإشارات الآنفة الذكر إلى أن كل لغةٍ في العالم مهما كان مبلغها من الرقيِ والكفاءة، محكوم عليها بالتلاقح والتخاطب، لإثراء نفسها بالمصطلحات، ولإشباع نظامها بالتّراكيب والمفردات. وذلك ما يجب أن تأتيه العربيّة في عصرنا هذا بحيث إن العرب قاطبة مدعوون إلى تعلّم اللغات الأجنبية الكبيرة، أوعلى حدّ تعبيرهم اللغات الحيّة، لينقلوا منها إلى العربية ثمار عقول أصحابها في مختلف ميادين المعرفة. وهنا لا بأس من الإشارة إلى أن نشاط الترجمة ينبغي ألا يقتصر على الأفراد دون الهيئات الرسمية والفاعلة. كما نسجل غياب البرمجة الصارمة الواعية لِما يجب أن يُترجم من اللغات الأجنبية. وإذن، فمتى ينتقل العرب، في تعليمهم وتفكيرهم وأعمالهم، من مرحلة التّقليد إلى مرحلة الإبداع، ومن مرحلة الإعجاب بما يصدر عن الغرب، إلى مرحلة إنتاج شيءٍ ما يُعْجبُ به الغرب؟؟؟ وأين ترجمةٌ آخر ما يصدر في الولايات المتحدة الأمريكية واليابان، ولما لا إسرائيل، لِيُنْقَلَ على جناح السرعة، إلى المتعلمين والباحثين العرب ليُفيدوا منه علمياً من جهة، ولِيُرقُّوا من خلاله اللغة العربية، عن طريق الترجمة، ووضعها على محكٍّ قاسٍ، وذلك بجعلِها وجهاً لوجهٍ تجاه اللغة الإنجليزية، لغة الاتصالاتِ والرقميات والتقنولوجيا المعقّدة والحوسبة في وقتنا الحاضر، من جهة ثانية؟ وهل كان استعدادنا لهذا الأمر بما يناسبه من وعي بالمهمّة وإدراك منا بجثامة الوضع؟؟؟ أم نريد أن يرقى كلّ شيء لدينا، نحن العربَ، بالمُصادفة والقدَر والبركة وحدها؟؟

وتجدني ها هنا أذّكر بحتمية، لا بل بضرورة الترجمة من وإلى العربية، لأن الإحصاءات تدل على أنّ ما ترجم منذ المأمون العباسي حتى اليوم لا يتجاوز عشرة آلاف كتابا وهذا أمر خطير بالنسبة لمن يريد أن يدخل باب الحضارة من بابه الواسع.

لذلك كان آخر ما تلفظ به الدكتور طه حسين وهو على فراش الموت: ترجموا ثم ترجموا ثم ترجموا !! لأنّه تيّقن من أن العربية استطاعت أن تستوعب الحضاراتِ والثقافاتِ الإنسانيّةَ، وكانت واسطةَ بين الثقافة الإغريقية القديمة، والنهضة الأوروبية الحديثة التي انطلقت من أمصار مثل قرطبةَ وفاسَ وتلمسانَ وبجايةَ والقاهرةِ ودمشقَ وبغدادَ وماإليها

من مدن الأندلس وبلاد المغرب وبلاد المشرق، وذلك بأن نقّحت تلك العلومَ وأضافت إليها كثيرا من النظريات والشروح والتحويرات؛ قبل أن تتلقفه النهضة الأوربية فتدرُسَه، ثم تقيمَ عليه أسسَها الكبرى.

٤ / العربية في مواجهة التحديات والإكراهات المعاصرة

أ- مواجهة الإكراهات المعاصرة:

وفي دلالة الأنية والمعاصرة التي استعملها مولود قاسم كعنوان لكتابه نجد اصطلاح الآنية التي استخدمها ابن سينا ويقصد من ورائها الشخصية وهي تضم اللغة، والدين، والوطنية، واستعمالها أيضا يوهان غوتليب فيخته J.G.Fiche صاحب فلسفة الآنية أو الذاتية أو الانتماء الوطني٢٨.

وعن مدلول النهضة فهي من فعل « نهض» بمعنى قام بعد سقوط وضدها ليس الجلوس فيقال لمن سقط، انهض ولا يقال له ثم والتي تقال للجالس٢٩.

وبعد أن كانت اللغة العربية سبيلا لنهضة الغرب وقعنا نحن مرة أخرى، حيث ترجمت الأعمال العربية الضخمة والتي منها كتاب « رسائل جابر بن حيان»، وكتاب «الحساب والمقابلة « للخوارزمي، وكتاب « الحاوي في صناعة الطب» للرازي، و كتاب «كامل الصناعة الطبية» لعلي بن العباس، و كتاب « البصريات» لابن الهيثم، وكتاب « التصريف» للزهراوي، و كتاب «القانونط لابن سينا، وكتاب «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» للشريف الإدريسي، وكتاب «المفردات» لابن البيطار وغيرها٣٠.

والنهضة بذلك لا تعني الاندماج في حضارة الآخر، كما لا تعني العيش في التاريخانية، فألمانيا واليابان تمّ تدميرهما ماديا عن آخرهما لكنهما عاودتا النهوض أكثر مما سبق، وبالتالي لماذا تم تدمير كليا ألمانيا واليابان ونهضتا ولم تستطع الأمة العربية بعد النهوض.

ب- التحديات المعترضة سبيل اللغة العربية:

واقع البحث العلمي في اللغة العربية اليوم يتّصف بصفات أقل مايقال عنها إنها سلبية فضلا عن ما يعرفه العصر من تكنولوجيا حديثة تطبق على البحوث اللغوية بنجاح تام في البلدان المتطورة. ولا يخفى على أحد البطء الذي يسير به وضع المصطلحات وإقرارها وحرفية هذا العمل وفرديته ومشكل ذيوع هذه المصطلحات في الاستعمال. ثم إن للغة جوانب أخرى لا بد أن تستغل في البحث فيها هندسة اللغة الحديثة، وذلك مثل التركيب الاصطناعي للكلام والاستكشاف الآلي له، والمعالجة الآلية للغة، وبذلك يتّم تنطيق الأجهزة وخاصة الحاسوب، الذي يعدّ ابتكاره أكبر ظاهرة سجلت في العصر الحديث ، حيث بدأ يأخذ حيزا كبيرا في حياة الناس ويعد الثورة الثالثة أو الرابعة في ميدان مبتكرات الإنسان في العصر الحديث فبعد الثورة الصناعية في أوربا التي أطلقت البخار من مداخن القاطرات، تأتي الثورة الكوبرنيكية التي صححت مفاهيم الفضاء ثم تأتي الثورة التكنونولوجية لتعمّق انتصار الإنسان، ثم الثورة الأخيرة التي أطلق عليها بالثورة التواصلية التي صنعها الحاسوب وبرامج الحاسوب.

فمن جانب ثمة تحد قائم أمام العربية يتمثل في مدى قدرة اللغة العربية في استيعاب الدفق المعلوماتي الذي يتعلق بعلم الحاسوب، وخاصة وأنّ البرامج تأخذ أسماء مرجعياتها اليونانية أو اللاتينية ف Nero Burning و Delphi..

ولكن ذلك لن يؤثر في تعامل اللغة مع جهاز أساسه صيغ بعقلية كانت تتقن اللغة العربية وإذا ما ربطناه بالقاعدة العلمية لأن الأخيرة ترتكز على مفاهيم عربية رياضية ابتكرها العرب منذ قرون فالحاسوب إذ لا يفهم إلا لغة الأرقام العربية وهذا بالاعتماد على نموذج جبري محض وهذا يعني بكل بساطة أنّه لولا وجود المدرسة العربية لما وجد الحاسوب الرقمي أو على الأقل بالصفة التي هو عليها الآن٣١.

في الأنترنيت : لقد أصبح هذا المصطلح أكثر تداولا ليس فقط في المؤسسات الخاصة بل حتى في المدارس الحكومية والخاصة وحتى في البيوت ولم تستطع الترجمات أن تحل محله سواء في اللغة الفرنسية أو العربية أو في أي لغة من لغات العالم لقد ساهمت الأنترنيت في التواصل بين مختلف ثقافات العالم وقرّبت الأفكار واستطاعت برامجها المختلفة أن تخزن التاريخ العربي وتحتضن أهم

القواميس العربية وبات من اليسير على الباحث وفي أي مكان أن يسمع القرآن ويقرأ ترجمته بلغات عديدة، ولازالت الشركات تعمل على حل إشكالية الحرف العربي بل استطاعت الشركة العالمية للإعلام الآلي التي لا تزال تبذل مساع لوضع برمجيات للتعرف على الحرف العربي في ميدان تخزين الوثائق والقراءة الآلية لكثير من الأعمال مثل قراءة الصكوك وعناوين الرسائل والطرود وثمة منهجية معاصرة ويعمل بها في هذا الميدان وهي منهجية طريقة التعرف على الحرف العربي بالطريقة الضوئية٣٢.

ولكن تبقى هذه المجهودات التي بذلت في ميدان الأنترنيت قليلة مقارنة باللغات الأخرى وهذا من خلال السيطرة على المواقع وانتشارها وتغطيتها لمساحات كبيرة. فاللغة المستعملة في الأنترنت وبنسبة كبيرة هي اللغة الإنجليزية، فحسب الإحصاءات الأخيرة نجد أن ٨٨ بالمائة من معطيات الأنترنيت تبث باللغة الإنجليزية مقابل ٩ بالمائة بالألمانية و٢ بالمائة بالفرنسية و٧ بالمائة يوزع على باقي اللغات٣٣.

في الترجمة الآلية: من بين التحديات القائمة اليوم ما يتعلق بالترجمة الآلية للخطابات المختلفة فالتواصل أضحى أكثر يسرا قرّب معاني اللغات واختصر الزمان والمكان وأعطى الفرصة للتقارب بين مختلف فئات ثقافات العالم، ولم تعد اللغة عائقا في حدوث ذلك حتى على المستوى الفكري والعاطفي أحيانا وخاصة اللغات اللاتينية والجرمانية فقد وصلت الترجمة الآلية من وإلى هذه اللغات أكثر من ٩٠ بالمائة ويتوقع أن تصل في هذه اللغات كاملة وتامة بالإضافة إلى تصحيح الكلمات وضبط التهجئة، بينما يصل نصيب اللغة العربية في الترجمة الآلية حوالي ٥٠ بالمائة وهي نسبة قليلة٣٤.

ومن الإشكالات المطروحة على مستوى اللغة العربية كيف تتعامل برامج الترجمة الآلية مع قضايا النحو والصرف وكيف تستطيع تسهيل تواصل الناس في ظلها ؟ هذا ما يجب أن يعمل فيه أهل اللغة بالتعاون مع أهل البرمجيات لوضع قواعد تصلح لبرامج الحاسوب٣٥ ؟

بالإضافة إلى هذه التحديات فإنّ هناك عوائق أخرى تتعلق بصناعة المعاجم والتعليم العلمي والحضور في المحافل الدولية والإعلان والصحافة والمصطلح. وأمام هذه التحديات العنيفة وجب على المختصين النظر وبمسؤولية حضارية لما يتهدد اللغة العربية والذين دعوا دوما إلى تضميد جراح اللغة من الداخل والخارج ومما دعوا إليه ما يلي:

- تقليص الفجوة بين العاميات والفصحى : وذلك بترقية العامية وتنقيتها من الشوائب التي علقت بها، فما العامية إلا أسلوب أداء الكلمة إلى السامع مثل إطالة الفتحة والألف أو تفخيمها ومثل تسهيل الهمزة أو تحقيقها فهي محصورة في جرس الألفاظ وصوت الكلمات وكل ما يتعلق بالأصوات وطبيعتها وكيفية أدائها٣٦.
- ليست الظاهرة بالجديدة في اللغة العربية فقد سايرت اللغة منذ العصر الجاهلي فقد شهدت الحياة اللغوية مستويين لغويين أو عدة مستويات، وهو أمر بديهي في اللغة العربية وقد نشأت هذه الازدواجية في الجزيرة العربية قبل الإسلام بين اللغة الفصحى ولهجات القبائل وإن كانت الأولى لغة الأدب والعهود والمواثيق وكانت الثانية لغة التفاهم في الحياة اليومية، ولم يكن هناك فارق كبير بين هذين المستويين التعبيريين لأن اللهجات ليست لغات مستقلة وإنما هي اختلافات صوتية وصرفية بين القبائل تتعلق بمظاهر الإمالة والفتح والهمز والتسهيل والإدغام والوقف والتصحيح والإعلال والقصر والمد٣٧.

خاتمة

وفي الختام لا باس من التذكير بالدور الفعّال الذي تؤدّيه الوسائل السمعية البصرية فضلا عن المدرسة والجامعة في تكوين وتوجيه ثقافة الفرد العربي اللغوية فإن لم تُرَشد يصبح ضرها أكثر من نفعها.

وعلى أية حال أقول ففي هذا الزمان المتسارع الخطى أوجدت اللغة العربية دورها وأثبتت قدرتها على التفاعل مع العصر وكل دواعي التكنولوجيا، وأصبحت لغة الانترنيت والنشر الإلكتروني كباقي اللغات المعاصرة. فهي متفوقة في خصائصها وستبقى كذلك بجهود أبنائها، فمنهم من أجاد وأبدع الكثير من البرامج

الإليكترونية واللغوية التي ساهمت في التفاعل الخلاّق مع العصر ثقافيا وكذا مواكبة التطور التكنولوجي. ومن ثم حتمية البشرية في عدم الاستغناء عنها لأنها ذات أثر حضاري ومعرفي كبير.

قائمة المصادر والمراجع

أولا- المصادر

أحمد بن فارس: الصاحبي في فقه اللغة العربية، تحقيق د.مصطفى الشويمي: بيروت، ١٩٦٤.

محمد بن سلام الجمحي: طبقات فحول الشعراء، ج ٠١، تحقيق محمود محمد شاكر، القاهرة، ١٩٧٤.

الجاحظ (أبوعثمان بن بحر): الحيوان، ج ٠١، تحقيق عبد السلام محمد هارون، االقاهرة، ١٩٣٨.

ثانيا المراجع / ١- باللغة العربية

أحمد زكي بدوي: معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، مكتبة لبنان: بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٩٩.

أحمد محمد الحوفي:

- الحياة العربية من الشعر الجاهلي، ط ٠٥: القاهرة، ١٩٧٢.
- المراة في الشعر الجاهلي ، القاهرة، ١٩٨٠.

الشيخ احمد العلايلي: تهذيب المقدمة اللغوية للعلايليّ، دار السؤال للطباعة والنشر: دمشق، ط ٠٣، ١٩٨٥.

عبد الباقي فؤاد:الأسس النظرية والأبعاد العلمية لنظرية اللغة في النقد العربي، مكتبة الثقافة: بيروت، د.ت.

عبد العزيز بنعبد الله:مظاهر القوة والأصالة في اللغة العربية وأسباب الضعف الطارئ، مؤتمر التعريب: الرباط، ١٩٨٢

عبد الرحمن بن علي الغامدي: قيم المواطنة لدى طلاب الثانوية وعلاقتها بالأمن الفكري، جامعة نايف للعلوم الأمنية: الرياض، ط ٠١، ٢٠١٠.

عمار ساسي: اللسان العربي وقضايا العصر، دار هومه: الجزائر، د.ت.

صالح بالعيد:

- الأمن اللغوي، دار هومة: الجزائر ،٢٠١٠.
- اللغة العربية، دار هومة: الجزائر، ٢٠٠٢.
- اللغة العربية آلياتها الأساسية وقضاياها الراهنة، ديوان المطبوعات الجامعية: الجزائر، د.ت،

طه حسين: في الأدب الجاهلي، ط ٠٤: القاهرة، ١٩٤٧.

محمد عمارة: مخاطر العولمة على الهوية الثقافية، نهضة مصر للطباعة والنشر، ، ط ٠١، د.ت.

محمد عبد الواحد: الخطاب والحجاج في النقد الجديد، منشورات البيضاء: المغرب، ٢٠٠١.

محمد عبد الواحد: الخطاب والحجاج في النقد الجديد، منشورات البيضاء: المغرب، ٢٠٠١.

محمد مسلم: الهوية والعولمة، دار الغرب للنشر والتوزيع: وهران، د.طن د.ت.

٢- المترجمة

دوني كوش: فهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية، ترجمة قاسم المقداد، منشورات اتحاد الكتاب العرب: دمشق،٢٠٠٢ .

م.م لويس: اللغة في المجتمع، ترجمة تمام حسان، ،عالم الكتب، القاهرة، ٢٠٠٣.

جون جوزيف: اللغة والهوية، سلسلة عالم المعرفة، أغسطس، الكويت، ٢٠٠٧.

ثالثا- الرسائل والأطاريح الجامعية

سعاد العقون: دور المدرسة في بناء الذات السياسية للتلميذ، (مخطوط) أطروحة دكتوراه في العلوم السياسية، جامعة الجزائر، ٢٠٠٤.

رابعا- المقالات

أحمد دهمان: « اللغة العربية الصلة الحية بين حاضر الأمة وتراثها الزاخر»، مجلة التراث العربي (السورية)، ع ١٠٢، س ٢٦، نيسان ٢٠٠٦، (صفحة واب web).

أحمد مطلوب: « دور اللغة العربية في الإشعاع الحضاري «، ضمن منشورات المجلس الأعلى للغة العربية: الجزائر، ٢٠٠١.

الحبيب الجنحاوي: « ظاهرة العولمة الواقع والأفاق «، مجلة الفكر(الكويتية)، عدد أكتوبر- ديسمبر ١٩٩٩.

فواز محمد الراشد: مرئيات التخطيط اللغوي عرض ونقد، مجلة مجمع

اللغة العربية، الأردن ١٩٩٦، العدد ٥١.

رضوان جودت زيادة: «النهضة المستحيلة: قراءة المستقبل بعيون الماضي»، مجلة الاجتهاد، بيروت ٢٠٠٢، العدد ٥٤.

عبد المجيد عمراني: «نحو منظور جديد لتدعيم وتطوير اللغة العربية في ظل العولمة، مجلة اللغة العربية (الجزائرية)، ع ٢ ، سنة ١٩٩٩.

محمد يطاز: «المدرسة الرياضية العربية وعلوم الحاسوب حاضرا ومستقبلا «، منشورات المجلس الأعلى للغة العربية: الجزائر ٢٠٠١.

الهوامش:

١ تهذيب المقدمة اللغوية للعلايليّ، دار السؤال للطباعة والنشر: دمشق، ط ٠٣، ١٩٨٥، ص ٤١.

٢ عبد الباقي فؤاد، الأسس النظرية والأبعاد العلمية لنظرية اللغة في النقد العربي، مكتبة الثقافة: بيروت، د.ت، ص٥٤.

٣ لقد أطلق اللغويون والبلاغيون المحدثون على هذه الأغراض تسميات غير قليلة لا تكاد تبتعد في جوهرها عن مدلول البلاغة على الرغم من التباس هذا المصطلح واحتماله لدلالات متباينة، لأن البلاغة في نهاية المطاف قد تفيد الحجاج والاستدلال أو الوظيفة الشعرية والجمالية.(ينظر:د.محمد عبد الواحد، الخطاب والحجاج في النقد الجديد، منشورات البيضاء: المغرب، ٢٠٠١، ص ٨٥، وما بعدها).

٤ محمد مسلم : الهوية والعولمة، دار الغرب للنشر والتوزيع: وهران، د.طن د.ت، ص ١٣.

٥ ينظر: الحبيب الجنحاوي، « ظاهرة العولمة الواقع والأفاق «، مجلة الفكر(الكويتية)، عدد أكتوبر- ديسمبر ١٩٩٩، ص ١٠٠.

٦ منهم الدكتور طه حسين، يرحمه الله، الذي يقول: << فهذا الأدب الذي رأينا أنه لا يمثل الحياة الدينية والعقلية والسياسية والاقتصادية للعرب الجاهليين بعيد كل البعد أن يمثل اللغة العربية في العصر الذي يزعم الرواة أنه قيل فيه>> (في الأدب الجاهلي، ط ٠٤: القاهرة، ١٩٤٧، ص ٨٨).

وهو الذي كان قد قال اسطر: << وإذا كان العرب أصحاب علم ودين وأصحاب ثروة وقوة وبأس وأصحاب سياسة متصلة بالسياسة العامة متأثرة بها ومؤثرة فيها، وأصحاب إقتصاد داخلي وخارجي معقد فما أخلقهم أن يكونوا أمّة متحضرة راقية لا أمّة جاهلة همجية>>(نفسه).

٧ د.أحمد مطلوب، « دور اللغة العربية في الإشعاع الحضاري «، ضمن منشورات المجلس الأعلى للغة العربية: الجزائر، ٢٠٠١، ص ٤١.

٨ نفس المرجع، ص ٤٢.

٩ للتوسع في هذه المظاهر يطالع :

- الحياة العربية من الشعر الجاهلي، د.أحمد محمد الحوفي، ط ٠٥: القاهرة، ١٩٧٢.
- المراة في الشعر الجاهلي، د.أحمد محمد الحوفي، القاهرة، ١٩٨٠.

١٠ طبقات فحول الشعراء، ج ٠١، تحقيق محمود محمد شاكر، القاهرة، ١٩٧٤، ص ٢٥.

١١ نفسه، ص ٢٤.

١٢ الصاحبي في فقه اللغة العربية، تحقيق د.مصطفى الشويمي: بيروت، ١٩٦٤، ص ٢٦٥.

١٣ ينظر: الحيوان، ج ٠١، تحقيق عبد السلام محمد هارون، االقاهرة، ١٩٣٨، ص ٣٢٧، وما بعده.

١٤ د.محيي الدين صابر، « دور التعليم العالي في تنمية الذاتية الثقافية»، بحث ألقي في مؤتمر وزراء التعليم العالي، الجزائر، أيار ١٩٨١ ، ص ١٥.

١٥ ينظر م.م لويس، ترجمة تمام حسان، اللغة في المجتمع،عالم الكتب، القاهرة، ٢٠٠٣ ص ١٥.

١٦ ينظر: صالح بالعيد، الأمن اللغوي، دار هومة: الجزائر ،٢٠١٠، ص ١٠.

١٧ ينظر: جون جوزيف، اللغة والهوية، سلسلة عالم المعرفة، أغسطس، الكويت، ٢٠٠٧، ص ٠٤.

١٨ المرجع نفسه، ص ٢٢.

١٩ أجمد زكي بدوي، معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، مكتبة لبنان: بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٩٩، ص ٢٠٦.

٢٠ محمد عمارة، مخاطر العولمة على الهوية الثقافية، نهضة مصر للطباعة والنشر، ط٠١، د.ت، ص ٦.

٢١ دوني كوش، مفهوم الثقافة في العلوم

الاجتماعية، ترجمة قاسم المقداد، منشورات اتحاد الكتاب العرب: دمشق، ٢٠٠٢، ص ص ٨٧- ٨٨..

٢٢ ينظر: سعاد العقون، دور المدرسة في بناء الذات السياسية للتلميذ، (مخطوط) أطروحة دكتوراه في العلوم السياسية، جامعة الجزائر، ٢٠٠٤، ص ٢٨.

٢٣ ينظر: عبد الرحمن بن علي الغامدي، قيم المواطنة لدى طلاب الثانوية وعلاقتها بالأمن الفكري، جامعة نايف للعلوم الأمنية: الرياض، ط ٠١، ٢٠١٠، ص ١٢٧.

٢٤ المرجع نفسه، ص ١٢٨.

٢٥ المرجع نفسه، ص ١٣٠.

٢٦ ينظر: د.عبد العزيز بنعبد الله، مظاهر القوة والأصالة في اللغة العربية وأسباب الضعف الطارئ، مؤتمر التعريب: الرباط، ١٩٨٢، ص ١.

٢٧ ينظر: د.أحمد دهمان، « اللغة العربية الصلة الحية بين حاضر الأمة وتراثها الزاخر»، مجلة التراث العربي (السورية)، ع ١٠٢، س ٢٦، نيسان ٢٠٠٦، (صفحة واب web).

٢٨ ينظر: الأمن اللغوي...، ص ١٠٧.

٢٩ ينظر: فواز محمد الراشد، مرئيات التخطيط اللغوي عرض ونقد، مجلة مجمع اللغة العربية، الأردن ١٩٩٦، العدد ٥١، ص ١٢٥

٣٠ ينظر: رضوان جودت زيادة، «النهضة المستحيلة: قراءة المستقبل بعيون الماضي»، مجلة الاجتهاد، بيروت ٢٠٠٢، العدد ٥٤، ص ٣٢٢.

٣١ ينظر: محمد يطاز، « المدرسة الرياضية العربية وعلوم الحاسوب حاضرا ومستقبلا «، منشورات المجلس الأعلى للغة العربية: الجزائر ٢٠٠١، ص ص ٣٦١، ٣٦٢.

٣٢ ينظر: د.صالح بلعيد، اللغة العربية، دار هومة: الجزائر، ٢٠٠٢، ص ١٠٣.

٣٣ ينظر: عبد المجيد عمراني، نحو منظور جديد لتدعيم وتطوير اللغة العربية في ظل العولمة، مجلة اللغة العربية (الجزائرية)، ع ٢ ، سنة ١٩٩٩، ص ٧٥.

٣٤ ينظر: صالح بلعيد، اللغة العربية آلياتها الأساسية وقضاياها الراهنة، ديوان المطبوعات الجامعية: الجزائر، د.ط، د.ت، ص ٥٥.

٣٥ ينظر: المدرسة الرياضية العربية وعلوم الحاسوب حاضرا ومستقبلا، ص ٣٦١.

٣٦ د.عمار ساسي: اللسان العربي وقضايا العصر، دار هومه: الجزائر، ص ٩٨.

٣٧ نفسه.